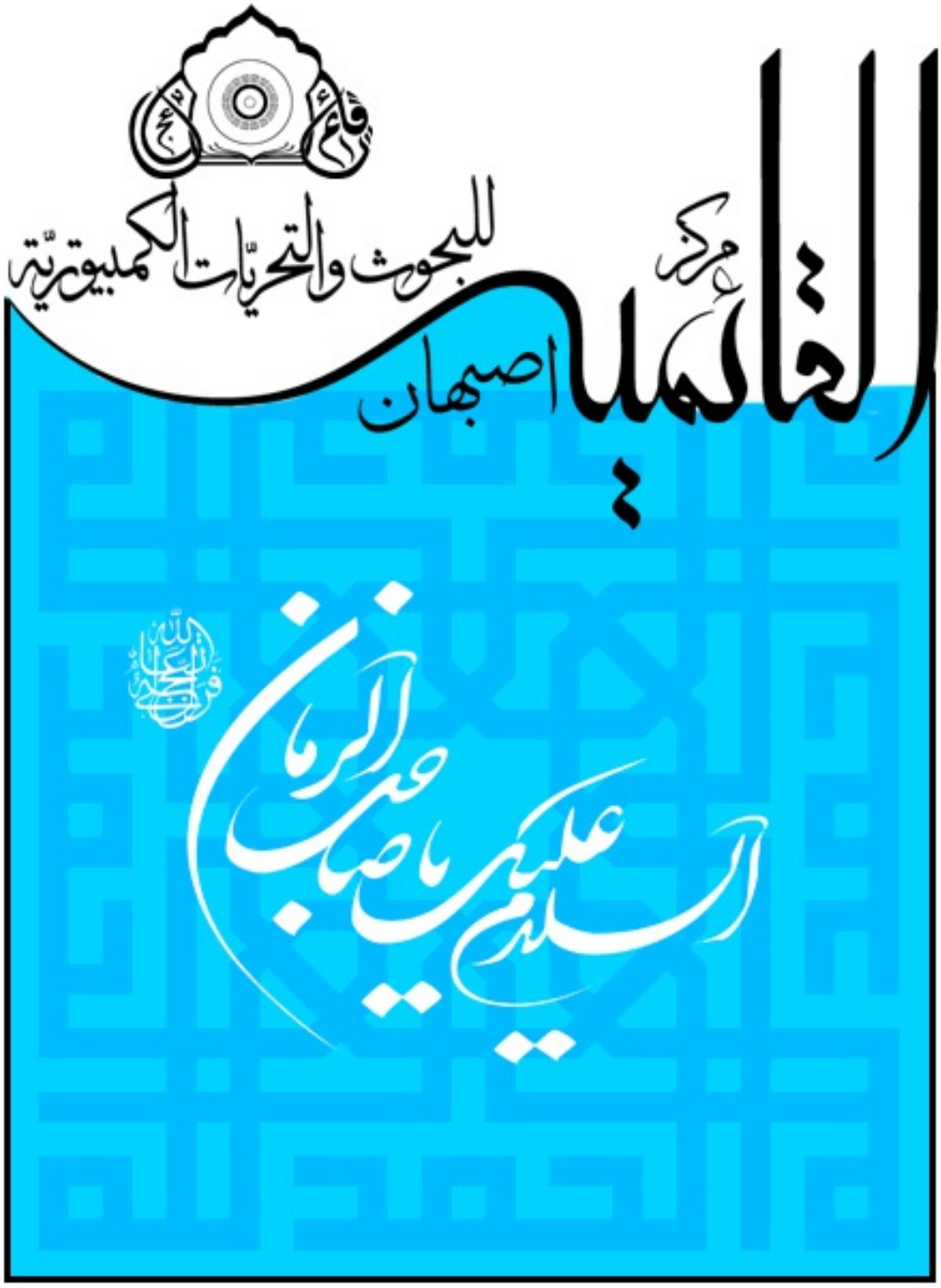

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

على مائدة العقيدة

١١

العبادة

حدّها ومفهومها

جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

العباده حدها و مفهومها

كاتب:

جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
العباده حدها و مفهومها ----- ۷
اشارة ----- ۷
اشارة ----- ۷
المقدمه ----- ۱۰
تقدیم ----- ۱۳
تخصیص العبادة والاستعانة باللّه سبحانه ----- ۱۶
المسألة الاولی: ----- ۱۸
مفهوم العبادة وحدّها ----- ۱۸
اشارة ----- ۱۸
لیست العبادة نفس الخضوع أو نهایته ----- ۲۲
توجیه غیر سدید ----- ۲۶
اشارة ----- ۲۶
۱- نظریة صاحب المنار فی تفسیر العبادة ----- ۲۷
۲- نظریة الشیخ شلتوت، زعیم الأزهر ----- ۲۹
۳- تعریف ابن تیمیة ----- ۳۰
التعریف الأوّل: العبادة هی الخضوع للشیء بما أنّه إله ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۲
ترادف الإله ولفظ الجلالة ----- ۳۷
التعریف الثانی: العبادة عبارة عن الخضوع للشیء علی أنّه ربّ ----- ۴۱
اشارة ----- ۴۱
نتیجة البحث ----- ۴۴
الفوضی فی التطبیق بین الإمام والمأموم ----- ۴۷

المسألة الثانية: ----- ۵۳
حصر الاستعانة فی اللّه ----- ۵۳
اشارة ----- ۵۳
الآيات التی تنسب الظواهر الكونية إلى اللّه وإلى غيره: ----- ۵۵
حصيلة البحث: ----- ۵۷
اجابة على سؤال ----- ۶۳
تعريف مركز ----- ۶۹

العباده حدها و مفهومها

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

عنوان و نام پدیدآور : العباده حدها و مفهومها/ جعفر السبحانی.

مشخصات نشر : قم: مشعر، ۱۴۱۶ق.=۱۳۷۴.

مشخصات ظاهری : ۶۴ص.

فروست : علی مائده العقیده؛ ۱۱.

یادداشت : عربی.

یادداشت : کتابنامه به صورت زیرنویس.

موضوع : عبادت (اسلام)

موضوع : عبادات

رده بندی کنگره : BP۱۸۵/۱/س۲ع۲ ۱۳۷۴

شماره کتابشناسی ملی : ۲۹۳۵۶۰۱

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ۳

المقدمه

ص: ۴

قال اللَّه تبارک وتعالی:

«إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَإِیَّاکَ نَسْتَعِینَ»

ص: ۵

بسم اللَّه الرحمن الرحیم

وبه وحده نستعین وعلیه وحده نتوکل

والحمد للَّهربّ العالمین، والصَّلاة والسلام علی سید رُسُله، وخاتم أنبیائه وآله ومن سار علی خطاهم وتبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

یهتم المسلمون اهتماماً کبیراً بالعقیدة الصحیحة لأنّها تشکّل حجر الزاویة فی سلوکهم ومناراً یضیءُ دروبهم وزاداً لمعادهم.

ولهذا کرّسَ رسُولُ اللَّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الفترة المکیّة من حیاته الرسالیة نفسه لإرساء أُسس التوحید الخالص، ومکافحة الشرک والوثنیة، ثم بنی علیها فی الفترة المدنیة صَرحَ النظامِ الأخلاقی والاجتماعی والاقتصادی والسیاسیّ.

ولهذا- ونظراً للحاجةِ المتزایدة- رأینا أن نقدّم للأُمةِ الإسلامیّة الکریمة دراسات عقائدیة عابرة مستمدَّةٍ من کتاب اللَّهِ العزیز، والسُنّةِ الشریفة الصحیحة، والعقل السلیم، وما اتَّفق علیه علماءُ الأُمةِ الکرام، واللَّه الموفِّق.

معاونیّة التعلیم والبحوث الإسلامیّة

ص: ۶

ص: ۷

بسم اللّه الرحمن الرحيم

تقديم

العبادة من الموضوعات التى تطرق إليها الذكر الحكيم كثيراً. وقد حثَّ عليها فى أكثر من سورةٍ وآية وخصَّها باللّه سبحانه وقال: «وقَضى ربُّكَ ألّا تَعبُدوا إلّاإيّاهُ وبالوالِدَينِ إحساناً» (الإسراء/ ۲۳) ونهى عن عبادة غيره من الأنداد المزعومة والطواغيت والشياطين، وجعلها الأصل الأصيل بين الشرائع السماوية وقال: «يا أهلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَينَنا وبَينَكمْ ألّا نَعْبدَ إلّاإيّاهُ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيئاً ولا يَتَّخذَ بَعضُنا بَعضاً أرباباً مِنْ دُونَ اللّهِ» (آل عمران/ ۶۴) كما جعلها الرسالة المشتركة بين الرسل فقال سبحانه: «ولَقدْ بَعثنا فى كُلِّ امَّةٍ رَسولًا أنِ اعبدُوا اللّهَ واجْتنِبوا الطّاغوتَ فمِنهُمْ مَنْ هَدَى اللّهُ ومِنهمْ مَنْ حَقَّتْ عَليهِ الضَّلالةُ» (النحل/ ۳۶).

فإذا كان لهذا الموضوع تلك العناية الكبيرة فجدير

ص: ۸

بالباحث المسلم أن يتناولها بالبحث والتحقيق العلمى، حتى يتميّز هذا الموضوع عن غيره تميزاً منطقياً.

والـذى يُضـفى على الدراسـة، أهميـة أكثر، هو أنّ التوحيـد فى العبادة أحـد مراتب التوحيد التى لا محيص للمسـلم من تعلّمه، ثم عقد القلب عليه، والتحرر عن أىّ لوم من الوان الشرك. فلا تُنال تلك الامنيةُ فى مجالى العقيدة والعمل إلّابمعرفة الموضوع معرفة صحيحة، مدعمة بالدليل حتى لا يقع فى مغبَّة الشرك، وعبادة غيره سبحانه.

ورغم المكانـة الرفيعـة للموضوع لم نعثر على بحث جامع حول مفهوم العبادة يتكفّل بيان مفهومها، وحـدّها الـذى يُفصـله عن التكريم والتعظيم أو الخضوع والتذلل، وكأنَّ السلف (رضوان اللَّه عليهم) تلقّوها مفهوماً واضحاً، واكتفوا فيها بما توحى إليهم فطرتُهم.

ولو صحّ ذلك فإنّما يصح فى الأزمنة السالفة، دون اليوم الذى استفحل عند بعض الناسِ أمر ادّعاء الشـرك فى العبادة، فيما درج عليه المسلمون منذ قرون إلى أن ينتهى إلى عصر التابعين والصحابة فأصبح- بادعائهم- كل تعظيم

ص: ۹

وتكريم للنبىّ، عبادة له، وكلّ خضوع أمام الرسول شرك، فلا يلتفت الزائر يميناً وشمالًا فى المسجد الحرام والمسجد النبوى إلّاوتوقر سمعه كلمةُ «هذا شرك يا حاج»، وكأنّه ليس لديهم إلّاتلك اللفظة، أو لا يستطيعون تكريم ضيوف الرحمن إلّابذلك.

فاللازم على هؤلاء- الذين يعدون مظاهر الحبّ والودّ، والتكريم والتعظيم شركاً وعبادة- وضعَ حدٍّ منطقىّ للعبادة، يُميَّز بها، مصاديقُها عن غيرها حتى يتّخذه الوافدون من أقاص العالم وأدانيه، ضابطة كلّية فى المشاهد والمواقف، ولكن- وللأسف- لا تجد بحثاً حول مفهوم العبادة وتبيينها فى كتبهم ونشرياتهم ودورياتهم.

فلأجل ذلك قمنا فى هذه الرسالة، بمعالجة هذا الموضوع، بشرح مفهومها لغة وقرآناً، حيث بيّنا أنّ حقيقة الشرك فى تعاليم الأنبياء أخصّ ممّا ورد فى المعاجم وكتب اللّغة.

جعفر السبحانى

تحريراً فى ۲۵/ ۲/ ۱۴۱۶ ه

ص: ۱۰

تخصيص العبادة والاستعانة باللّه سبحانه

إنّ المسلم فى شرق الأرض وغربها، يخصّ العبادة والاستعانة باللّه سبحانه فى كلّ يوم فى صلواته الخمس فيقول: «إيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعِينُ» ولا خلاف بين المسلمين فى هذه الضابطة الكلّية، أى أنّ العبادة مختصّة باللّه سبحانه، ولا يصحّ إصدار هوية إسلامية لشخص إلّابعد الاعتراف بهذه الكُبرى، وإنّما الخلاف بينهم فى بعض الأُمور والأحوال الخارجية، فهل هى عبادة أو لا؟ فلو صحّت كونها عبادة فلا يجوز الإتيان بها لغيره سبحانه وإن أتى بها لغيره يُعدّ مشركاً.

مثلًا تقبيل الأضرحة هل هو عبادة لصاحب القبر أو تكريم وتعظيم له؟ وهكذا الصلاة فى المشاهد وعند قبور الأنبياء، فهل هى عبادة لصاحب القبر (وإن كانت الصلاة

ص: ۱۱

للّه) أو هى عبادة للّهولكن تتضمّن التبرّك بصاحب القبر؟

ومثل ذلك مسألة الاستعانة فى نفس الآية، فمع الاعتراف بحصر الاستعانة باللّه سبحانه، فلا شكّ عند العقلاء عامة أنّه تجوز الاستعانة بالأحياء فى الأُمور الدنيوية، ولكن إذا استعان بإنسان حىّ فيما يرجع إلى الأُمور الغيبية، كردّ ضالته وبرء مرضه فهل هو استعانة تخالف الحصر المذكور فى الآية أو لا؟

وهناك صورة ثالثة أبهم من الصورة الثانية وهى: إذا استعان بميّت بنحو من الأنحاء كما إذا طلب منه الدعاء والاستغفار فى حقّه فهل هى استعانة تخالف الحصر أو لا؟ وقس على ذلك بعض ما يرد عليك من الصور المردّدة بين العبادة والتكريم، أو بين الاستعانة الجائزة والمحرّمة.

ولأجل أن يكون البحث أكثر علمية وموضوعية علينا أولًا البحث فى مسألتين:

۱- تحديد مفهوم العبادة حتى تتميّز عن التكريم والتبجيل والتبرّك. ۲- تحديد الاستعانة المختصة باللّه وفصلها عن الاستعانة الجائزة.

كل ذلك فى ضوء القرآن الكريم.

ص: ۱۲

المسألة الاولى:

مفهوم العبادة وحدّها

اشارة

بالرغم من عناية اللغويين والمفسّرين بتفسير لفظ العبادة وتبيينها، لكن لا تجد فى كلماتهم ما يشفى الغليل، وذلك لأنّهم فسّروه بأعمّ المعانى وأوسعها وليس مرادفاً للعبادة طرداً وعكساً.

۱- قال الراغب فى المفردات: «العبودية: إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها، لأنّها غاية التذلّل، ولا يستحقّ إلّا من له غاية الإفضال وهو اللّه تعالى ولهذا قال: «وقَضى ربُّكَ ألَّا تَعبُدوا إلّاإيّاهُ ...»».

۲- قال ابن منظور فى لسان العرب: «أصل العبودية:

الخضوع والتذلل».

۳- قال الفيروز آبادى فى القاموس المحيط: «العبادة:

ص: ۱۳

الطاعة».

۴- قال ابن فارس فی المقاییس: «العبد: الذی هو أصل العبادة، له أصلان متضادّان، والأول من ذینک الأصلین، یدلّ علی لین وذل، والآخر علی شدّة وغلظ».

هذه أقوال أصحاب المعاجم ولا تشذّ عنها أقوال أصحاب التفاسیر وهم یفسّرونه بنفس ما فسّر به أهل اللغة، غیر مکترثین بأنّ تفسیرهم، تفسیر لها بالمعنی الأعم.

۱- قال الطبری فی تفسیر قوله: «إیّاکَ نَعبُد» اللّهمّ لک نخشع ونذلّ ونستکین إقراراً لکَ یا ربّنا بالربوبیة لا لغیرک. إنّ العبودیة عند جمیع العرب أصلها الذلّة وأنّها تسمّی الطریق المذلّل الذی قد وطئته الأقدام وذلّلته السابلة معبَّداً، ومن ذلک قیل للبعیر المذلّل بالرکوب للحوائج: معبَّد، ومنه سمّی العبد عبداً، لذلّته لمولاه (۱).

۲- قال الزجاج: معنی العبادة: الطاعة مع الخضوع، یقال: هذا طریق معبّد إذا کان مذلّلًا لکثرة الوطء، وبعیر معبّد إذا کان مطلیا بالقطران، فمعنی «إیّاکَ نَعبدُ»: إیاک

۱- الطبری، التفسیر ۱: ۵۳، ط دار المعرفة، بیروت.

ص: ۱۴

نطيع، الطاعة التى نخضع منها (۱).

۳- وقال الزمخشرى: العبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلّل، ومنه ثوب ذو عبدة أى فى غاية الصفافة، وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلّافى الخضوع للّه‌تعالى لأنّه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع (۲).

۴- قال البغوى: العبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع وسمّى العبد عبداً لذلّته وانقياده يقال: طريق معبّد، أى مذلّل (۳).

۵- قال ابن الجوزى: المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال:

أ- بمعنى التوحيد «إيّاك نعبد» عن على وابن عباس.

ب- بمعنى الطاعة كقوله تعالى «لا تَعبُدِ الشَّيطانَ».

ج- بمعنى الدعاء (۴).

۶- قال البيضاوى: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلّل، ومنه الطريق المعبّد أى مذلّل، وثوب ذو عبدة، إذا كان فى غاية الصفافة، ولذلك لا تستعمل إلّافى الخضوع

۱- الزجاج، معانى القرآن ۱: ۴۸.

۲- الزمخشرى، الكشاف ۱: ۱۰.

۳- البغوى، التفسير ۱: ۴۲.

۴- ابن الجوزى، زاد المستنير ۱: ۱۲.

ص: ۱۵

للّه تعالى (۱).

وسيأتى أنّ تفسير العبادة بغاية الخضوع ربّما يكون تفسيراً بالأخص، إذ لا تشترط فى صدقها غاية الخضوع، ولذلك يعدُّ الخضوع المتعارف الذى يقوم به أبناء الدنيا أمام اللّه سبحانه عبادة، وإن لم يكن بصورة غاية التعظيم، وربّما يكون تفسيراً بالأعم، فإنّ خضوع العاشق لمعشوقه ربّما يبلغ نهايته ولا يكون عبادة.

۷- وقال القرطبى: نعبُد، معناه نطيع، والعبادة: الطاعة والتذلّل، وطريق معبّد إذا كان مذلّلًا للسالكين (۲).

۸- وقال الرازى: العبادة عبارة عن الفعل الذى يؤتى به لغرض تعظيم الغير وهو مأخوذ من قولهم: طريق مُعبَّد (۳).

وإذا قصّرنا النظر فى تفسير العبادة، على هذه التعاريف وقلنا بأنّها تعاريف تامّة جامعة للأفراد ومانعة للاغيار، لزم رَمى الأنبياء والمرسلين، والشهداء

۱- البيضاوى، أنوار التنزيل ۱: ۹.

۲- القرطبى، جامع أحكام القرآن ۱: ۱۴۵.

۳- الرازى، مفاتيح الغيب ۱: ۲۴۲، فى تفسير قوله تعالى: «إيّاكَ نعبدُ»

ص: ۱۶

والصدّيقين بالشرك وأنّهم- نستعيذ باللّه- لم يتخلّصوا من مصائد الشرك، ولزم ألّا يصحّ تسجيل أحد من الناس فى قائمة الموحّدين.

وذلك لأنّ هذه التعاريف تفسّر العبادة بأنّها:

۱- إظهار التذلّل.

۲- إظهار الخضوع.

۳- الطاعة والخشوع والخضوع.

۴- أقصى غاية الخضوع.

وليس على أديم الأرض من لا يتذلّل أو لا يخشع ولا يخضع لغير اللّه سبحانه وإليك بيان ذلك:

***

ليست العبادة نفس الخضوع أو نهايته

إنّ الخضوع والتذلّل حتى إظهار نهاية التذلّل لا يساوى العبادة ولا يعدّ حداً منطقياً لها، بشهادة أنّ خضوع الولد أمام والده، والتلميذ أمام استاذه، والجندىُّ أمام قائده، ليس عبادة لهم وإن بالغوا فى الخضوع والتذلّل حتى ولو قبّل الولدُ قدمَ الوالدين، فلا يعد عمله عبادة، لأنّ اللّه

ص: ۱۷

سبحانه يقول: «واخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمةِ» (الإسراء/ ۲۴).

وأوضح دليل على أنّ الخضوع المطلق وإن بلغ النهاية لا يعدّ عبادة هو أنّه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم وقال: «وإذْ قُلنا لِلمَلائِكةِ اسْجُدوا لآدَمَ» (البقرة/ ۳۴) وآدم كان مسجوداً له ككونه سبحانه مسجوداً له، مع أنّ الأول لم يكن عبادة وإلّا لم يأمر بها سبحانه، إذ كيف يأمر بعبادة غيره وفي الوقت نفسه ينهى عنها بتاتاً في جميع الشرائع من لدن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه و آله، ولكن الثاني أي الخضوع للّه، عبادة.

واللّه سبحانه يصرّح في أكثر من آية بأنّ الدعوة إلى عبادة اللّه سبحانه والنهي عن عبادة غيره، كانت أصلًا مشتركاً بين جميع الأنبياء، قال سبحانه: «ولَقدْ بَعثنا في كُلِّ امَّةٍ رَسولًا أنِ اعبدُوا اللّهَ واجْتنِبوا الطّاغوتَ» (النحل/ ۳۶) وقال سبحانه: «وَما أرسَلنا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسولٍ إلّانُوحي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلّا أنَا فَاعْبُدونِ» (الأنبياء/ ۲۵) وفي موضع آخر من الكتاب يعد سبحانه التوحيد في العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية، إذ يقول: «قل يا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا

ص: ۱۸

إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَينَنا وبَينَكمْ ألّا نَعْبدَ إلّااللَّهُ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيئاً» (آل عمران/ ۶۴)، ومعه كيف يأمر بسجود الملائكة لآدم الذى هو من مصاديق الخضوع النهائى؟ وهذا الاشكال لايندفع إلّا بنفى كون الخضوع عبادة، ببيان أنّ للعبادة مقوّماً لم يكن موجوداً فى سجود الملائكة لآدم.

ولم يكن آدم فحسب هو المسجود له بأمره سبحانه، بل يوسف الصديق كان نظيره، فقد سجد له أبواه وإخوته، وتحقّق تأويل رؤياه بنفس ذلك العمل، قال سبحانه حاكياً عن لسان يوسف: «إنّى رأيتُ أحدَ عشَر كوكباً والشَّمسَ والقَمَر رأَيتُهُمْ لى ساجِدِينَ» (يوسف/ ۴).

كما يحكى تحققه بقوله سبحانه: «ورَفَعَ أبَويهِ عَلَى العَرشِ وخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وقالَ يا أبَتِ هذا تَأْويلُ رُؤْياىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلها رَبِّى حَقّاً» (يوسف/ ۱۰۰) ومعه كيف يصحّ تفسير العبادة بالخضوع أو نهايته.

إنّه سبحانه أمر جميع المسلمين بالطواف بالبيت، الذى ليس هو إلّاحجراً وطيناً، كما أمر بالسعى بين الصفا والمروة، قال سبحانه: «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيتِ العَتِيقِ» (الحج/ ۲۹) وقال سبحانه: «إنَّ الصَّفا والمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ البَيتَ أوِ

ص: ۱۹

اعْتَمَر فَلا جُناحَ عَلَيهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» (البقرة/ ۱۵۸).

فهل ترى أنّ الطواف حول التراب والجبال والحجر عبادة لهذه الأشياء بحجّة أنّه خضوع لها؟!

إنّ شعار المسلم الواقعى هو التذلّل للمؤمن والتعزّز على الكافر، قال سبحانه: «فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافِرينَ» (المائدة/ ۵۴).

فمجموع هذه الآيات وجميع مناسك الحج، يدلّان بوضوح على أنّ مطلق الخضوع والتذلّل ليس عبادة. ولو فسّرها أئمة اللغة بالخضوع والتذلّل، فقد فسّروها بالمعنى الأوسع، فلا محيص حينئذٍ عن القول بأنّ العبادة ليست إلّا نوعاً خاصاً من الخضوع. ولو سُميت فى بعض الموارد مطلق الخضوع عبادة، فإنّما سُميت من باب المبالغة والمجاز، يقول سبحانه: «أَرأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ أفأَنتَ تَكونُ عَليهِ وَكيلًا» (الفرقان/ ۴۳) فكما أنّ إطلاق اسم الإله على الهوى مجاز فكذا تسمية متابعة الهوى عبادة لها، ضرب من المجاز.

ومن ذلك يعلم مفاد قوله سبحانه: «ألَمْ أعْهَدْ إلَيكُمْ يا بَنى آدمَ أنْ لا تَعبُدوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وأنِ اعْبُدُونِى هذا

ص: ۲۰

صِراطٌ مُستقیمٌ» (یس/ ۶۰- ۶۱).

فإنّ مَنْ یتَّبع قولَ الشَّیطان فیتساهل فی الصلاة والصیام، ویترک الفرائض أو یشرب الخمر ویرتکب الزنا، فإنّه بعمله هذا یقترف المعاصی لأنّه یعبده کعبادة اللّه، أو کعبادة المشرکین للأصنام ولأجل ذلک، لا یکون مشرکاً محکوماً علیه بأحکام الشرک، وخارجاً عن عداد المسلمین، مع أنّه من عبدة الشیطان لکن بالمعنی الوسیع الأعم من الحقیقی والمجازیّ.

وربما یتوسع فی إطلاق العبادة فتطلق علی مطلق الإصغاء لکلام الغیر، وفی الحدیث: «من أصغی إلی ناطق فقد عبده، فإن کان الناطق یؤدی عن اللّه عزّ وجلّ فقد عبد اللّه، وإن کان الناطق یؤدی عن الشیطان فقد عبد الشیطان» (۱).

توجیه غیر سدید

اشارة

إنّ بعض من یفسّر العبادة بالخضوع والتذلّل عندما یقف أمام هذه الدلائل الوافرة، یحاول أن یجیب ویقول: إنّ

۱- الکلینی، الکافی ۶: ۴۳۴.

ص: ۲۱

سجود الملائکهٔ لآدم أو سجود یعقوب وأبنائه لیوسف، لم یکن عبادهٔ له ولا- لیوسف، لأنّ ذلک کان بأمر اللّه سبحانه ولولا أمره لانقلب عملهم عبادهٔ لهما.

وهذا التوجیه بمعزِل عن التحقیق، لأنّ معنی ذلک أنّ أمر اللّه یُغیّر الموضوع، ویبدل واقعه إلی غیر ما کان علیه، مع أنّ الحکم لا یغیِّر الموضوع.

فلو نفترض أنّه سبحانه أمر بسبِّ المشرک والمنافق فأمره سبحانه لایخرج السبَّ عن کونه سباً، فلو کان مطلقُ الخضوع المتجلّی فی صورهٔ السجود لآدم، أو لیوسف، عبادهٔ لکان معنی ذلک أنّه سبحانه أمر بعبادهٔ غیره، مع أنّها فحشاء بتصریح الذکر الحکیم لا یأمر بها سبحانه، قال تعالی: «إِنَّ اللَّهَ لا یَأْمُرُ بِالفَحشاءِ أَتَقُولونَ عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (الأعراف/ ۲۸).

وهناک تعاریف للعبادهٔ لجملهٔ من المحققین نأتی بها واحداً بعد الآخر:

۱- نظریهٔ صاحب المنار فی تفسیر العبادهٔ

إنّ صاحب المنار لمّا وقف علی بعض ما ذکرناه

ص: ۲۲

حاولَ أن يُفسّر العبادة بشكل يبعده عن بعض ما ذكرنا، لذلك أخذ فى التعريف قيوداً ثلاثة:

أ- العبادة ضرب من الخضوع بالِغٌ حدَّ النهاية.

ب- ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، لا يعرف منشأها.

ج- واعتقاده بسلطة لا يُدرَك كنهها وماهيتها.

ويلاحظ على هذا التعريف:

أولًا: أنّ التعريف غير جامع، وذلك لأنّه إذا كان مقوِّم العبادة، الخضوعَ البالغَ حدّ النهاية فلا يشمل العبادة الفاقدة للخشوع والخضوع التى يؤديها أكثر المتساهلين فى أمر الصلاة، وربما يكون خضوع الجندى لقائده أشدّ من هؤلاء المتساهلين الذين يتصوّرون الصلاة عبادة وجهداً.

وثانياً: ماذا يريد من قوله «عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها»؟ فهل يعتقد أنّ الأنبياء كانوا يستشعرون عظمة المعبود ولكن لا يعرفون منشأها. مع أنّ غيرهم يستشعر عظمة المعبود ويعرف منشأها، وهو

ص: ۲۳

أنّه سبحانه: الخالق البارئ، المصوّر، أو أنّه سبحانه هو الملك القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر.

وثالثاً: ماذا يريد من قوله: «واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها»؟.

فإن أراد شرطية هذا الاعتقاد فى تحقق العبادة، فلازم ذلك عدم صدقها على عبادة الأصنام والأوثان، فإنّ عُبّاد الأوثان يعبدونها وكانوا يعتقدون بكونهم شفعاء عند اللّه سبحانه فقط لا أنّ لهم سلطة لا يدرك كنهُها وماهيتُها.

۲- نظرية الشيخ شلتوت، زعيم الأزهر

وقد عرّف شيخ الأزهر الأسبق العبادة بنفس ما عرّفها به صاحب المنار، ولكنّه يختلف عنه لفظاً ويتّحد معه معنىً، فقال: العبادة خضوع لا يحدُّ، لعظمة لا تحد (۱).

وهذا التعريف يشترك مع سابقه نقداً واشكالًا، وذلك أنّ العبادة ليست منحصرة فى خضوع لا يحدّ بل الخضوع المحدّد أيضاً ربّما يعد عبادة، كما إذا كان الخضوع بأقل

۱- تفسير القرآن الكريم: ۳۷.

ص: ۲۴

مراتبه. وکذلک لا یشترط کون الخضوع لعظمهٔ لا تحدّ، إذ ربما تکون عظمهٔ المعبود محدودهٔ فی زعم العابد کما هو الحال فی عبادهٔ الأصنام، الذی کان الدافع إلی عبادتها کونها شفعاء عند اللّه.

۳- تعریف ابن تیمیهٔ

وأکثر التعاریف عرضهٔ للإشکال هو تعریف ابن تیمیهٔ إذ قال:

«العبادهٔ اسم جامع لکلّ ما یحبّه اللّه ویرضاه من الأقوال والأعمال الباطنیهٔ والظاهریهٔ کالصلاهٔ والزکاهٔ والصیام، والحج، وصدق الحدیث وأداء الأمانهٔ، وبرّ الوالدین وصلهٔ الأرحام» (۱).

وهذا الکاتب لم یفرّق- فی الحقیقهٔ- بین العبادهٔ والتقرّب، وتصوّر أنّ کلّ عمل یوجب القربی إلی اللّه، فهو عبادهٔ له تعالی أیضاً، فی حین أنّ الأمر لیس کذلک، فهناک أُمور توجب رضا اللّه، وتستوجب ثوابَه لکنها قد تکون عبادهٔ کالصوم والصلاهٔ والحج، وقد تکون موجبهٔ للقرب

۱- مجلهٔ البحوث الإسلامیهٔ، العدد ۲: ۱۸۷، نقلا عن کتاب العبودیهٔ: ۳۸.

ص: ۲۵

إليه دون أن تعدّ عبادهٔ، كالإحسان إلى الوالدين، وإعطاء الزكاهٔ، والخمس، فكل هذه الأُمور (الأخيرهٔ) توجب القربى إلى اللّه فى حين لا تكون عبادهٔ. وإن سمّيت فى مصطلح أهل الحديث عبادهٔ، فيراد منها كونها نظير العبادهٔ فى ترتّب الثواب عليها.

وبعبارهٔ أُخرى: أنّ الإتيان بهذه الأعمال يعدّ طاعهٔ للّه ولكن ليس طاعهٔ عبادهٔ.

وإن شئت قلت: إنّ هناك أُموراً عباديّهٔ وأُموراً قربيهٔ، وكل عبادهٔ مقرّبهٔ، وليس كل مقرّب عبادهٔ، فدعوهٔ الفقير إلى الطعام، والعطف على اليتيم- مثلًا- توجب القرب ولكنّها ليست عبادهٔ بمعنى أن يكون الآتى بها عابداً بعمله للّه تعالى.

وإذا وقفت على قصور هذه التعاريف هنا نذكر فى المقام تعريفين، كلّ يلازم الآخر.

ص: ۲۶

التعريف الأوّل: العبادة هى الخضوع للشىء بما أنّه إله

اشارة

إنّ لفظ العبادة من المفاهيم الواضحة، وربّما يكون ظهور معناها الواضح مانعاً عن التحديد الدقيق لها غير أنّه يمكن تحديدها من خلال الإمعان فى الموارد التى تستعمل فيها تلك اللفظة، فقد استعملها القرآن فى مورد الموحّدين والمشركين، وقال سبحانه فى الدعوة إلى عبادة نفسه «وَلكنْ أعبدُ اللَّهَ الَّذى يَتوفّاكُمْ» (يونس/ ۱۰۴) وقال سبحانه: «قُلْ إنِّى أُمِرْتُ أنْ أعبُدَ اللَّهَ مُخلِصاً لَهُ الدِّينَ» (الزمر/ ۱۱).

وقال فى النهى عن عبادة غيره: «إنَّما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أوْثاناً وَتَخْلُقونَ إفْكاً» (العنكبوت/ ۱۷) وقال: «أتَعبُدونَ ما تَنْحِتُونَ» (الصافّات/ ۹۵): فعلى الباحث أن يقتنصَ معنى العبادة بالدقة فى أفعال العباد، وعقائدهم من غير فرق بين

ص: ۲۷

عبادة الموحّدين وعبادة المشركين فيجعله حدّاً منطقياً للعبادة.

إنّ الإمعان فى ذلك المجال يدفعنا إلى القول بأنّ العبادة عندهم عبارة عن الفعل الدالّ على الخضوع المقترن مع عقيدة خاصة فى حقّ المخضوع له، فالعنصر المقوّم للعبادة حينئذٍ أمران:

۱- الفعل المنبنى عن الخضوع والتذلّل.

۲- العقيدة الخاصة التى تدفعه إلى عبادة المخضوع له.

أمّا الفعل، فلا يتجاوز عن قول أو عمل دالّ على الخضوع والتذلّل بأىّ مرتبة من مراتبها، كالتكلّم بكلام يؤدى إلى الخضوع له أو بعمل خارجى كالركوع والسجود بل الانحناء بالرأس، أو غير ذلك مما يدلّ على ذلّته وخضوعه أمام موجود.

وأمّا العقيدة التى تدفعه إلى الخضوع والتذلّل فهى عبارة عن:

۱- الاعتقاد بإلوهيته.

۲- الاعتقاد بربوبيته.

أمّا الأوّل فالإلوهية منسوبة إلى اللّه وهو ليس بمعنى

ص: ۲۸

المعبود- وإن اشتهر فى الألسن- بل كونه معبوداً من لوازم كونه إلها لا- أنّه نفس معناه، بل إلاله- كما يشهد عليه الذكر الحكيم- مرادف، للفظ الجلالة ويختلف معه فى الكلّية والجزئية، فاللّه كلّى ولفظ الجلالة علم جزئى.

وتوضيح ذلك أنّ الموحّدين عامة والوثنيين كلّهم، وعبدة الشمس والكواكب يعتقدون بإلوهية معبوداتهم إمّا لكون المعبود إلهاً كبيراً أو إلهاً صغيراً، إمّا إلهاً صادقاً أو إلهاً كاذباً، فالاعتقاد بإلوهية المعبود بهذا المعنى هو المقوّم لصدق العبادة.

ولأجل أنّه لا يستحق العبادة إلّامن كان إلهاً لذلك يؤكّد القرآنَ بأنّه لا إله إلّااللّه ومع ذلك فكيف تعبدون غيره.

يقول سبحانه: «الَّذِينَ يَجْعَلونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَسوفَ يَعْلَمونَ» (الحجر/ ۹۶).

«والَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ» (الفرقان/ ۶۸).

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهةً لِيكُونُوا لَهُمْ عِزّاً» (مريم/ ۸۱).

«أئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهةً أُخْرى» (الأنعام/ ۱۹).

وحاصل الآيات أنّ غيره سبحانه لا يستحق العبادة

ص: ۲۹

لأنّها من شؤون الإلوهيـة وهى من خصائص اللّه سـبحانه لا غير، فيتحصّل من ذلك أنّ العبادة عبارة عن الخضوع أمام موجود للاعتقاد بـأنّه إله حقيقىّ أو مجـازىّ، ولو لاـ ذلـك الاعتقـاد لا يوصف الخضوع بالعبادة، والشاهـد عليه أنّ العاشق الولهان إذا خضع لمعشوقته، خضوعـاً بالغـاً لاـ يعـد عبـادة لهـا، لأنّه لم يصـدر عن الاعتقاد بإلوهيتها وأنّها إله، وإنّما صـدر عن اعتقاد بأنّها جميلـة تجـذب الإنسان بنفسيتها وجمالها.

ويـدل على ما ذكرنا من أنّ دعوة المشـركين وخضوعهم ونـداءهم وسؤالهم كانت مصـحوبة بالاعتقاد بإلوهيـة أصـنامهم، أنّه سـبحانه يفسّر الشرك فى بعض الآيات باتّخاذ إله مع اللّه.

ويقول: «وأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ* إنّا كَفَيْناكَ المُستَهزِئِينَ* الَّذِينَ يَجْعَلونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَسوفَ يَعْلَمونَ» (الحجر/ ۹۴- ۹۶).

وفى بعض الآيـات ينـدّد بالمشـركين بـأنّه ليس لهـم إلـه غير اللّه فكيـف يعبـدون غيره، ويقـول: «أمْ لَهُـمْ إلـهٌ غَيرُ اللَّهِ سُـبحانَ اللَّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ» (الطور/ ۴۳).

والإمعان فى هذه الآيات ونظائرها يؤكد أنّ اندفاع

ص: ۳۰

المشركين إلى عبادة الأصنام أو اندفاع الموحّدين إلى عبادة اللّه هو اعتقادهم بكونهم آلهة أو كونه إلهاً، فهذا الاعتقاد كان يدفعهم إلى العبادة، ولأجل ذلك كانوا يقدّمون لمعبوداتهم النذور والقرابين وغيرهما من التقاليد والسنن. ولمّا كانت كلمة التوحيد تهدِّم عقيدتهم بإلوهية غيره سبحانه لذلك كانوا يستكبرون عند سماعها، كما قال سبحانه: «إِنَّهُمْ كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلّااللّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» (الصافات/ ۳۵).

ثم إنّ الاعتقاد بإلوهية الأصنام لا يلازم الاعتقاد بكون المعبود خالقاً للعالم حتى يقال بأنّ المشركين فى الجاهلية كانوا موحدين فى الخالقية، كما يدل على ذلك أكثر من آية. قال سبحانه:

«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ» (الزخرف/ ۹).

إذ للإلوهية شؤون عندهم يقوم ببعضها الإله الأعلى كخلق السماوات والأرض، وبعضها الآخر الآلهة المزعومة المتخيّلة عندهم، كغفران الذنوب والشفاعة المطلقة المقبولة بلا قيد وشرط، وبما أنّ هذين الأمرين

ص: ۳۱

الأخيرين من شؤون الإله الأعلى أيضاً وليس للآلهة المزعومة فيها حظّ ولا نصيب، يركّز القرآن على إثباتهما للّه سبحانه فقط ويقول: «ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلّااللّهُ» (آل عمران/ ۱۳۵). ويقول: «قُلْ للّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً» (الزمر/ ۴۴).

وفى ضوء ذلك فالمشركون كانوا معتقدين بالإله الأعلى الأكبر وفى الوقت نفسه يعتقدون بآلهة شتّى ليس لهم من الشؤون ماللإله الأعلى منها، وفى الوقت نفسه كانت الآلهة عندهم مخلوقين للّهسبحانه، مفوّضين إليهم بعض الشؤون كما عرفت.

ترادف الإله ولفظ الجلالة

إنّ الدليل الواضح على أنّ الإله يرادف لفظ الجلالة ولكن يفترق عنها بالجزئية والكلية الأُمور التالية:

أ- وحدة المادة، إذ الأصل للفظ الجلالة هو الإله، فحذفت الهمزة وعوّض اللام، ولذلك قيل فى النداء: «يا اللّه، بالقطع كما يقال: يا إله» (۱).

ب- الآيات التى استدلّ فيها على وحدة الإله صريحة

۱- الزمخشرى، الكشاف ۱: ۳۰.

ص: ۳۲

فی أنّ المراد من الإله هو المتصرّف المدبّر، أو من بیده أزمّة الأُمور أو ما یقرب من ذلک، ولا یصح تفسیر الإله بالمعبود وإلّا لفسد الاستدلال، وإلیک الآیات الواردة فی ذلک المجال.

۱- «لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إلّااللَّهُ لَفَسدَتا» (الأنبیاء/ ۲۲) فإنّ البرهان علی نفی تعدّد الآلهة لا- یتم إلّاإذا جعلنا «الإله» فی الآیة بمعنی المتصرّف المدبّر أو من بیده أزمّة الأُمور أو ما یقرب من هذین، ولو جعلنا الإله بمعنی المعبود لانتقص البرهان لبداهة تعدّد المعبودین فی هذا العالم، مع عدم فساد النظام الکونی وقد کانت الحجاز یوم نزول هذه الآیة مزدحمة بالآلهة بل ومرکزها مع انتظام العالم وعدم فساده.

وعندئذ یجب علی من یجعل «الإله» بمعنی المعبود أن یقیّده بلفظ «بالحق» أی لو کان فیهما معبودات- بالحق- لفسدتا، ولمّا کان المعبود بالحقّ مدبراً أو متصرّفاً لزم من تعدّده فساد النظام وهذا کلّه تکلّف لا مبرّر له.

۲- «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وما کانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَبَ کُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلی بَعضٍ» (المؤمنون/ ۹۱).

ویتمّ هذا البرهان أیضاً لو فسّرنا الإله بما ذکرنا من أنّه

ص: ۳۳

كلّىّ، ما يطلق عليه لفظ الجلالة. وإن شئت قلت: إنّه كناية عن الخالق أو المدبّر المتصرّف أو من يقوم بأفعاله وشؤونه، والمناسب فى هذا المقام هو الخالق، ويلزم من تعدّده ما رتّب عليه فى الآية من ذهاب كلّ إله بما خلق واعتلاء بعضهم على بعض.

ولو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، ولا يلزم من تعدّده أىّ اختلال فى الكون. وأدلّ دليل على ذلك هو المشاهدة. فإنّ فى العالم آلهة متعدّدة، وقد كان فى أطراف الكعبة المشرّفة ثلاثمائة وستون إلهاً ومع ذلك لم يقع أىّ فساد أو اختلال فى الكون.

فيلزم من يفسّر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلّف بما ذكرناه فى الآية المتقدمة.

۳- «قُلْ لَوْ كانَ مَعهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولونَ إذاً لَابْتَغَوْا إلى ذِى العَرْشِ سَبِيلًا» (الإسراء/ ۴۲) فإنّ ابتغاء السبيل إلى ذى العرش من لوازم تعدّد الخالق المدبّر المتصرف، أو من بيده أزمّة أُمور الكون أو غير ذلك ممّا يرسمه فى ذهننا معنى الإلوهية، وأمّا تعدّد المعبود فلا يلازم ذلك إلّابالتكلّف الذى أشرنا إليه فيما سبق.

ص: ۳۴

۴- «إِنَّكُمْ وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ* لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها» (الأنبياء/ ۹۸- ۹۹) والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان فی النار، علی بطلان كونها آلهة إذ لو كانت آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنّما يتم لو فسّرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإنّ خالق العالم أو مدبّره والمتصرّف فيه أو من فوّض إليه أفعال اللّه أجلّ من أن يحكم عليه بالنار وأن يكون حصب جهنم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنی المعبود فلا يتم البرهان، لأنّ المفروض أنّها كانت معبودات وقد جعلت حصب جهنّم. ولو أمعنت فی الآيات التی ورد فيها لفظ الإله والآلهة لقدرت علی استظهار ما اخترناه.

حصيلة البحث: أنّ العبادة عبارة عن الخضوع الصادر عمّن يتّخذه الخاضع إلهاً، وما ذكرناه علی وجه التفصيل هو الذی أفرغه الشيخ جواد البلاغی فی قالب التعريف وقال: العبادة ما يرونه مشعراً بالخضوع لمن يتّخذه الخاضع إلهاً، ليوفيه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلوهية (۱).

۱- البلاغی، آلاء الرحمن: ۵۷، ط صيدا.

ص: ۳۵

التعريف الثانى: العبادة عبارة عن الخضوع للشىء على أنّه ربّ

اشارة

واللغويون وإن ذكروا للربّ معانى مختلفة كالخالق والمالك والصاحب والمصلح، ولكن الظاهر أنّ أكثر هذه المعانى من لوازم المعنى الواحد، ويمكن تصويره بأنّه من فوّض إليه أمر الشىء من حيث الإصلاح والتدبير والتربية، فلو أُطلق الربّ على الخالق فلأنّه يقوم بإصلاح مخلوقه وتدبيره، وتربيته. ولو أُطلق على صاحب المزرعة ربّ الضيعة، أو على سائس القوم أنّه ربّهم، فلأنّ الأوّلَ يقوم بتصليح أُمور المزرعة، والثانى بتدبير أُمور القوم وشؤونهم وقس على ذلك سائر الأُمور، فاللّه سبحانه ربّ العالمين، و «رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ» (الصافات/ ۵) و «هُوَ رَبُ

ص: ۳۶

الشِّعْرى» (النجم/ ۴۹) فلأجل أنّه سبحانه مدبّر ومدير ومتصرّف فى شؤونها والقائم عليها. فلو أُطلق الربّ على مالك الدابة فلأجل أنّه فُوِّض إليه إصلاح المملوك.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى اللَّه سبحانه يعلّل فى بعض الآيات حصر العبادة فى اللَّه سبحانه حيث حصر الربوبية به دون غيره، فتدلّ بصراحة على أنّ العبادة من شؤون الربوبية، وإليك بعض الآيات.

وقال المسيح:

«يا بَنِى إِسْرائيلَ اعْبُدوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ» (المائدة/ ۷۲). «إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء/ ۹۲). «إِنَّ اللَّهِ رَبِّى ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (آل عمران/ ۵۱).

وإذا عرفت هذين الأمرين:

۱- الربّ من فوّض إليه تدبير الشىء وإصلاحه وتربيته.

۲- إنّ الآيات تعلّل حصر العبادة فى اللَّه بكونه ربّاً.

فستعرف أنّ اتّسام الخضوع، والسؤال والدعاء بالعبادة من شؤون الاعتقاد بكون المخضوع له ربّاً بيده مسير الخاضع ومصيره، وإن شئت قلت: بيده شأن أو

ص: ۳۷

شؤون مَن حياته الدنيوية أو الأُخروية بيده، فالخضوع المقرون بهذا الاعتقاد يُضفى عليه عنوان العبادة.

وليعلم أنّ المراد من كون الرب مالكاً لشأن من شؤون حياته ليس المراد هو المالكية القانونية والوضعية التى تُعطى للإنسان حيناً وتسلَب عنه حيناً آخر، بل المراد المالكية التكوينية المستمدّة من الخالقية كما فى الإله الأعلى أو من تفويض الإله الأعلى لها، كما هو الحال عند آلهة المشركين- على زعمهم- الذين يعتقدون بأنّه سبحانه فوّض إليهم بعضَ شؤون حياتهم، كغفران الذنوب والشفاعة، بل يظهر ممّا نقله ابن هشام فى سيرته أنّ الشرك دخل مكّة فى صورة الشرك فى الربوبية فيما يرجع إلى الاستمطار، يقول ابن هشام: «كان عمرو بن لحى» أول من أدخل الوثنية إلى مكّة ونواحيها، فقد رأى فى سفره إلى البلقاء من أراضى الشام أُناساً يعبدون الأوثانَ وعندما سألهم عمّا يفعلون قائلًا:

ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟

قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا!

ص: ۳۸

فقال لهم: أفلا تعطونى منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟

وهكذا استحسن طريقتهم واستصحب معه إلى مكة صنماً كبيراً باسم «هبل» ووضعه على سطح الكعبة المشرّفة ودعا الناس إلى عبادتها (۱).

إذن فاستمطار المطر من هذه الأوثان والاستعانة بها يكشف عن أنّ بعض المشركين كانوا يعتقدون بأنّ لهذه الأوثان دخلًا فى تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

نتيجة البحث

إذا عرفنا أنّ مقومّ العبادة عبارة عن اعتقاد السائل والخاضع والداعى أو المنادى بأنّ المسؤول والمخضوع له «إله» و «ربّ» يملك شيئاً ممّا يرجع إليه فى عاجله أو آجله، فى مسيره ومصيره، وإنّه يقوم بذلك لكونه خالقاً أو مفوَّضاً إليه من قبل الخالق، فيقوم على وجه الاستقلال والأصالة، تستطيع أن تقضى فى الأعمال التى يقوم بها اشياع الأنبياء ومحبّوهم، بأنّها ليست عبادة أبداً وإنّما هى

۱- سيرة ابن هشام ۱: ۷۹.

ص: ۳۹

من مصاديق التكريم والاحترام وإن بلغت نهاية التذلّل، لأنّها لا تنطلق من اعتقاد الخاضع بإلوهية النبى، ولا ربوبيته بل تنطلق عن الاعتقاد بكونهم عباد اللَّه الصالحين، وعباده المكرمين الذين لا يعصون اللَّه وهم بأمره يعملون، نظير:

۱- تقبيل الأضرحة وأبواب المشاهد التى تضمّ أجساد الأنبياء والأولياء، فإنّ ذلك ليس عبادة لصاحب القبر والمشهد، لفقدان عنصر العبادة فيما يفعله الإنسان من التقبيل واللّمس وما شابه ذلك.

۲- إقامة الصلاة فى مشاهد الأولياء تبركاً بالأرض التى تضمنت جسد النبى أو الإمام، كما تبرّك بالصلاة عند مقام إبراهيم اتّباعاً لقوله تعالى: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهِيمَ مُصَلّى» (البقرة/ ۱۲۵).

۳- التوسّل بالنبى سواء كان توسلًا بذاته وشخصه، أو بمقامه وشخصيته أو بدعائه فى حال حياته ومماته، فإنّ ذلك كلّه لا يكون عبادة لعدم الاعتقاد بإلوهية النبىّ ولا ربوبيته، ويعدّ من التوسّل بالأسباب، سواء كان المدعوّ قادراً على إنجاز العمل أو عاجزاً، غاية الأمر يكون التوسّل

ص: ۴۰

فی صورة العجز غیر مفید، لا متّسماً بالشرک، فلو افترضنا أنّ الأنبیاء والأئمة فی حال الممات غیر قادرین علی شیء فالدعاء والتوسّل بهم مع کونهم عاجزین لا یجعل العمل شرکاً، بل یجعله لغواً، مع أنّ أصل المبنی باطل أی أنّهم غیر قادرین فی حال الممات.

۴- طلب الشفاعة من الأنبیاء أو النبیّ الأکرم لیس شرکاً لأنّه یطلبها منه بقید أنّه عبد مأذون لا أنّه مفوّض إلیه أمرها، وفی الواقع إمّا أن یکون مأذوناً فیشفع وإما أن یکون الطلب لغواً.

۵- الاستغاثة بالأرواح المقدّسة لیس إلّاکالاستغاثة بهم فی حال حیاتهم، فهی علی وجه یتّسم بالشرک من غیر فرق بین حالی الحیاة والممات ولا یتّسم به علی وجه آخر، کذلک فلو استغاث به بما أنّه عبد أقدره اللّه تعالی علی الإجابة حیاً ومیتاً، یکون من قبیل التوسّل بالأسباب، وإن استغاث به بما أنّه إله أو ربّ یقوم بالاستغاثة أصالة واستقلالًا وأنّه فوّض إلیه حیاة المستغیث عاجلًا وآجلًا، فهو شرک من غیر فرق بین الحالتین.

هذا خلاصة البحث حول حصر العبادة باللّه سبحانه،

ص: ۴۱

وإذا أمعنت فيما ذكرنا يمكنك على بعض ما أثارته بعض المناهج الفكرية فى الأوساط الإسلامية حول هذه الأُمور، التى نسبت جلّ المسلمين إلى الشرك فى العبادة مع أنّهم بمنأى عن الشرك.

الفوضى فى التطبيق بين الإمام والمأموم

لقد ترك الإهمال فى تفسير العبادة تفسيراً منطقياً، فوضى كبيرة فى مقام التطبيق بين الإمام والمأموم فنرى أنّ إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (۱۶۴- ۲۴۱ ه) صدر عن فطرة سليمة فى تفسير العبادة، وأفتى بجواز مسّ منبر النبىّ صلى الله عليه و آله والتبرّك به وبقبره وتقبيلهما عندما سأله ولده عبد اللّه بن أحمد، وقال: سألته عن الرجل يمسُّ منبرَ النبىِّ صلى الله عليه و آله ويتبرّك بمسِّه، ويُقَبّله، ويفعل بالقبر مثل ذلك، يريد بذلك التقرّب إلى اللّه عزّ وجلّ؟ فقال: «لابأس بذلك» (۱).

هذه هى فتوى الإمام- الذى يفتخر بمنهجه أحمد بن تيمية، وبعده محمد بن عبد الوهاب- ولم ير بأساً بذلك،

۱- أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال ۲: ۴۹۲، برقم: ۳۲۴۳، تحقيق الدكتور وصى اللّه عباس، ط بيروت ۱۴۰۸.

ص: ۴۲

لما عرفت من أنّ العبادة ليست مجرّد الخضوع، فلا يكون مجرّد التوجّه إلى الأجسام والجمادات عبادة، بل هى عبارة عن الخضوع نحو الشى، باعتبار أنّه إله أو ربّ، أو بيده مصير الخاضع فى عاجله وآجله، وأمّا مسّ المنبر أو القبر وتقبيلهما، كل ذلك لغاية التكريم والتعظيم لنبىّ التوحيد، وإن كان لغاية التبرّك فلا يتجاوز التبرّك فى المقام عن تبرّك يعقوب بقميص ابنه يوسف، ولم يخطر بخلد أحد من المسلمين إلى اليوم الذى جاء فيه ابن تيمية بالبدع الجديدة، أنّها عبادة لصاحب القميص والمنبر والقبر أو لنفس تلك الأشياء. ولمّا كانت فتوى الإمام ثقيلة على محقق الكتاب، أو من علق عليه لأنها تتناقض مع ما عليه الوهابية وتبطل أحلام ابن تيمية، ومن لفَّ لفَّه، حاول ذلك الكاتب أن يوفّق بين جواب الإمام وما عليه الوهابية فى العصر الحاضر، فقال: «أمّا مسّ منبر النبىّ فقد أثبت الإمام ابن تيمية فى الجواب الباهر (ص ۴۱) فعله عن ابن عمر دون غيره من الصحابة، وروى أبو بكر بن أبى شيبة فى المصنف (۴/ ۱۲۱) عن زيد بن الحباب قال: حدّثنى أبو مودود قال:

ص: ۴۳

حدّثنى يزيد بن عبد الملك بن قسيط قال: رأيت نفراً من أصحاب النبىّ إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى زمانهٔ المنبر القرعاء فمسحوها، ودعوا قال: ورأيت يزيد يفعل ذلك.

وهذا لما كان منبره الذى لامس جسمه الشريف، أمّا الآن بعد ما تغيّر لا يقال بمشروعيهٔ مسحه تبركاً به».

ويلاحظ على هذا الكلام: بعد وجود التناقض بين ما نقل عن ابن تيميهٔ من تخصيص المسّ بمنبر النبىّ با بن عمر، وما نقله عن المصنف لابن أبى شيبهٔ من مسح نفر من أصحاب النبىّ زمانهٔ المنبر:

أوّلًا: لو كان جواز المسّ مختصّاً بالمنبر الذى لامسه جسم النبى الشريف دون ما لايمس كان على الإمام المفتى أن يذكر القيدَ، ولا يُطلق كلامَه، حتى ولو افترضنا أنّ المنبر الموجود فى المسجد النبوى فى عصره كان نفسَ المنبر الذى لامسَه جسمُ النبىّ الأكرم، وهذا لا- يغيب عن ذهن المفتى، إذ لو كان تقبيل أحد المنبرين نفس التوحيد، وتقبيل المنبر الآخر عينَ الشرك، لما جاز للمفتى أن يغفل التقسيم والتصنيف.

وثانياً: أنّ ما يفسده هذا التحليل أكثر ممّا يصلحه،

ص: ۴۴

وذلـك لأـنّ معنـاه أنّ لجسـمه الشـريف تـأثيراً فى المنبر وما تبرّك به، وهـذا يناقض التوحيـد الربوبى من أنّه لا مؤثّر فى الكون إلّااللّه سبحانه، فكيف يعترف الوهابى بأنّ لجسمه الشريف فى الجسم الجامد تأثيراً وأنّه يجوز للمسلمين أن يتأثروا به عبر القرون.

ثم إنّ المعلّق استثنى مسّ قبر النبى صلى الله عليه و آله والتبرك به، ومنعهما وقال فى وجهه:

«وأمّا جواز مسّ قبر النبىّ والتبرّك به فهذا القول غريب جداً لم أر أحداً نقله عن الإمام، وقال ابن تيمية فى الجواب الباهر لزوار المقابر (ص ۳۱): اتّفق الأئمـة على أنّه لا يمسّ قبر النبى ولا يقبله، وهـذا كلّه محافظة على التوحيد، فإنّ من أُصول الشـرك باللّه اتّخاذ القبور مساجد» (۱).

لكن يلاحظ عليه: كيف يقول: لم أجـد أحـداً نقله عن الإمام، أوَ ليس ولـده أبو عبد اللّه راوية أبيه وكتبه يروى هذه الفتوى؟ وهو ثقة عند الحنابلة!

وأمّا التفريق بين مسّ المنبر والقبر بجعل الأول نفس

۱- تعليقة المحقق، نفس الصفحة.

ص: ۴۵

التوحيد، والثانى أساس الشرك، فمن غرائب الأُمور، لأنّ الأمرين يشتركان فى التوجّه إلى غير اللّه سبحانه، فلو كان هذا محرز الشرك، فالموضوعات سيّان، وإن فرّق بينهما بأنّ الماسّ، ينتفع بالأول دون الثانى لعدم مسّ جسده بالثانى فلازمه كون الأول نافعاً والثانى أمراً باطلًا دون أن يكون شركاً.

ولو رجع المحقق إلى الصحاح والمسانيد وكتب السيرة والتاريخ، لوقف على أنّ التبرّك بالقبر ومسّه، كان أمراً رائجاً بين المسلمين فى عصر الصحابة والتابعين، ولأجل إيقاف القارئ على صحة ما نقول نذكر نموذجين من ذلك:

۱- إنّ فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت رسول اللّه حضرت عند قبر أبيها صلى الله عليه و آله وأخذت قبضة من تراب القبر تشمّه وتبكى وتقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ألّا يشمّ مدَى الزمان غَواليا

ص: ۴۶

صُبَّت علیَّ مصائب لو أنّها صُبَّت على الأيّامِ صِرنَ لَياليا (۱)

إنّ هذا التصرّف من السيدة الزهراء المعصومة يدل على جواز التبرّك بقبر رسول اللّه وتربته الطاهرة.

۲- إنّ بلال- مؤذّن رسول اللّه- أقام فى الشام فى عهد عمر بن الخطاب فرأى فى منامه النبيّ صلى الله عليه و آله وهو يقول:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آنَ لك أن تزورنى يا بلال؟»

فانتبه حزيناً وَجِلًا خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبيّ صلى الله عليه و آله فجعل يبكى عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يضمّهما ويقبّلهما ... إلى آخر الخبر (۲).

۱- لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرخين، منهم السمهودى فى وفاء الوفا ۲: ۴۴۴- والخالدى فى صلح الاخوان: ۵۷، وغيرهما

۲- ابن الأثير، أُسد الغابة ۱: ۲۸، وغيره من المصادر.

ص: ۴۷

المسألة الثانية:

حصر الاستعانة فى اللَّه

اشارة

هذه هى المسألة الثانية التى طرحت فى صدر المقال وقلنا: إنّ المسلمين فى أقطار العالم يَحصرون الاستعانة فى اللَّه سبحانه ومع ذلك يستعينون بالأسباب العادية، جرياً على القاعدة السائدة بين العقلاء، ولا يرونه مخالفاً للحصر، كما أنّ المتوسّلين بأرواح الأنبياء يستعينون بهم فى مشاهدهم ومزاراتهم ولا يرون تعارض ذلك مع حصر الاستعانة باللَّه سبحانه، وذلك لأنَّ الاستعانة بغير اللَّه يمكن أن تتحقق بصورتين:

۱- أن نستعين بعامل- سواء أكان طبيعياً أم غير طبيعى- مع الاعتقاد بأنّ علمه مستند إلى اللَّه، بمعنى أنّه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبة من اللَّه

ص: ۴۸

وإذنه.

وهـذا النوع من الاسـتعانة- فى الحقيقة- لا ينفك عن الاسـتعانة باللّه ذاته، لأنّه ينطوى على الاعتراف بأنّه هو الذى منح تلك العوامل، ذلك الأثر، وأذن بها، وإن شاء سلبها وجرّدها منه.

فـإذا اسـتعان الزارع بعوامـل طبيعيـة كالشـمس والمـاء وحرث الأرض، فقـد اسـتعان بـاللّه- فى الحقيقـة- لأنّه تعـالى هوالـذى منح هذهالعوامل: القدرة على إنماء ماأودع فى بطن الأرض من بذر ومن ثم إنباته والوصول به إلى حدّ الكمال.

۲- وإذا استعان بإنسان أو عامل طبيعى مع الاعتقاد بأنّه مستقلّ فى وجوده، أو فى فعله عن اللّه، فلا شك أنّ ذلك الاعتقاد يصير شركاً والاستعانة به عبادة.

فإذا اسـتعان زارع بالعوامل المـذكورة وهو يعتقـد بأنّها مسـتقلّة فى تأثيرها أو أنّها مسـتقلّة فى وجودها ومادتها كما فى فعلها وقـدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة.

وبذلك يظهر أنّ الاسـتعانة المنحصـرة فى اللّه المنصوص عليها فى قوله تعالى «وإيّاك نَسـتعينُ» هى الاستعانة بالمعونة المستقلّة النابعة من ذات المستعان به،

ص: ۴۹

غير المتوقّفة على شيء، فهذا هو المنحصر فى اللّه تعالى، وأمّا الاستعانة بالإنسان الذى لا يقوم بشيء إلّابحول اللّه وقوّته وإذنه ومشيئته، فهى غير منحصرة باللّه سبحانه، بل إنّ الحياة قائمة على هذا الأساس، فإنّ الحياة البشرية مليئة بالاستعانة بالأسباب التى تؤثّر وتعمل بإذن اللّه تعالى.

وعلى ذلك لا مانع من حصر الاستعانة فى اللّه سبحانه بمعنى، وتجويزها بغيره بمعنى آخر وهو ما له نظر فى الكتاب العزيز.

ولإيقاف القارئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونية فى اللّه تارة، مع أنّها تنسب نفس الأفعال فى آيات أُخرى إلى غير اللّه أيضاً، وما هذا إلّالعدم التنافى بين النسبتين لاختلاف نوعيتهما فهى محصورة فى اللّه سبحانه مع قيد الاستقلال، ومع ذلك تنسب إلى غير اللّه مع قيد التبعية والعرضية.

الآيات التى تنسب الظواهر الكونية إلى اللّه وإلى غيره:

۱- يقول سبحانه: «وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» (الشعراء/ ۸۰). بينما يقول سبحانه فيه (أى فى العسل): «شِفاءٌ

ص: ۵۰

لِلنّاسِ» (النحل/ ۶۹).

۲- يقول سبحانه: «إنّ اللَّهَ هُوَ الرَّزّاقُ» (الذاريات/ ۵۸) بينما يقول: «وارْزُقُوهُمْ فِيها» (النساء/ ۵).

۳- يقول سبحانه: «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ» (الواقعة/ ۶۴). بينما يقول سبحانه: «يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِظَ بِهِمُ الكُفّارُ» (الفتح/ ۲۹).

۴- يقول تعالى: «واللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ» (النساء/ ۸۱).

بينما يقول سبحانه: «بَلَى ورُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» (الزخرف/ ۸۰).

۵- يقول تعالى: «ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ» (يونس/ ۳). بينما يقول سبحانه: «فالمُدَبِّراتِ أَمراً» (النازعات/ ۵).

۶- يقول سبحانه: «اللَّهُ يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» (الزمر/ ۴۲). بينما يقول: «الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ» (النحل/ ۳۲).

إلى غير ذلك من الآيات التى تنسب الظواهر الكونية تارة إلى اللّه، وتارة إلى غيره تعالى.

والحل أن يقال: إنّ المحصور باللّه تعالى هو انتساب هذه الأُمور على نحو الاستقلال، وأمّا المنسوب إلى غيره فهو على نحو التبعية، وبإذنه تعالى، ولا تعارض بين

ص: ۵۱

النسبتين ولا بين الاعتقاد بكليهما.

فمن اعتقد بأنّ هذه الظواهر الكونية مستندة إلى غير اللّه على وجه التبعية لا الاستقلال لم يكن مخطئاً ولا مشركاً، وكذا من استعان بالنبيّ أو الإمام على هذا الوجه.

هذا مضافاً إلى أنّه تعالى الذى يعلّمنا أن نستعين به فنقول: «إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَستَعِينُ» يحثُّنا فى آية أُخرى على الاستعانة بالصبر والصلاة فيقول: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ» (البقرة/ ۴۵) وليس الصبر والصلاة إلّافعل الإنسان نفسه.

حصيلة البحث:

إنّ الآيات الواردة حول الاستعانة على صنفين:

الصنف الأول: يحصر الاستعانة فى اللّه فقط ويعتبره الناصر والمعين الوحيد دون سواه.

والصنف الثانى: يدعونا إلى سلسلة من الأُمور المعينة (غير اللّه) ويعتبرها ناصرة ومعينة، إلى جانب اللّه.

أقول: اتضح من البيان السابق وجه الجمع بين هذين النوعين من الآيات، وتبيّن أنّه لا تعارض بين الصنفين

ص: ۵۲

مطلقاً، إلّاأنّ فريقاً نجدهم يتمسّكون بالصنف الأوّل من الآيات فيخطِّئون أىّ نوع من الاستعانة بغير اللَّه، ثم يضطرّون إلى إخراج (الاستعانة بالقدرة الإنسانية والأسباب المادية) من عموم تلك الآيات الحاصرة للاستعانة باللَّه بنحو التخصيص، بمعنى أنّهم يقولون: إنّ الاستعانة لا تجوز إلّاباللَّه إلّافى الموارد التى أذن اللَّه بها، وأجاز أن يستعان فيها بغيره، فتكون الاستعانة بالقدرة الإنسانية والعوامل الطبيعية- مع أنّها استعانة بغير اللَّه- جائزة ومشروعة على وجه التخصيص، وهذا ممّا لا يرتضيه الموحّد.

فى حين أنّ هدف الآيات هو غير هذا تماماً، فإنّ مجموع الآيات يدعو إلى أمر واحد وهو: عدم الاستعانة بغير اللَّه، وأنّ الاستعانة بالعوامل الأُخرى يجب أن تكون بنحو لا يتنافى مع حصر الاستعانة فى اللَّه بل تكون بحيث تعدّ استعانة باللَّه لا استعانة بغيره.

وبتعبير آخر: إنّ الآيات تريد أن تقول: بأنّ المعين والناصر الوحيد والذى يستمدّ منه كلّ معين وناصر، قدرته وتأثيره، ليس إلّااللَّه سبحانه، ولكنّه- مع ذلك- أقام

ص: ۵۳

هذا الكون على سلسلة من الأسباب والعلل التى تعمل بقدرته وأمر باستمداد الفرع من الأصل، ولذلك تكون الاستعانة به كالاستعانة باللَّه، ذلك لأنّ الاستعانة بالفرع استعانة بالأصل.

وإليك فيما يلى إشارة إلى بعض الآيات من الصنفين:

«ومَا النَّصرُ إلّامِنْ عِنْدِ اللَّهِ العَزيزِ الحَكيم» (آل عمران/ ۱۲۶).

«إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَستَعِينُ» (الحمد/ ۵).

«ومَا النَّصْرُ إلّامِنْ عِنْدِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكيمٌ» (الأنفال/ ۱۰).

هذه الآيات نماذج من الصنف الأول وإليك فيما يأتى نماذج من الصنف الآخر الذى يدعونا إلى الاستعانة بغير اللَّه من العوامل والأسباب:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ» (البقرة/ ۴۵).

«وتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوى» (المائدة/ ۲).

«ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيرٌ فَأعِينُونِى بِقُوَّةٍ» (الكهف/ ۹۵).

«وإنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» (الأنفال/ ۷۲).

ومفتاح حلّ التعارض بين هذين الصنفين من الآيات هو ما ذكرناه وملخّصه:

إنّ فى الكون مؤثراً تاماً، ومستقلًا واحداً، غير معتمد

ص: ۵۴

على غيره لا فى وجوده ولا فى فعله وهو اللَّه سبحانه:

وأمّا العوامل الأُخر فجميعها مفتقرة- فى وجودها وفعلها- إليه وهى تؤدى ما تؤدى بإذنه ومشيئته وقدرته، ولو لم يعط سبحانه تلك العوامل ما أعطاها من القدرة ولم تجر مشيئته على الاستمداد منها لما كانت لها أيّة قدرة على شىء.

فالمعين الحقيقى فى كل المراحل- على هذا النحو تماماً- هو اللَّه فلا يمكن الاستعانة بأحد باعتباره معيناً مستقلّاً. لهذه الجهة حصر هنا الاستعانة فى اللَّه وحده، ولكن هذا لا يمنع بتاتاً من الاستعانة بغير اللَّه باعتباره غير مستقلّ (أى باعتباره معيناً بالاعتماد على القدرة الإلهية) ومعلوم أنّ استعانة- كهذه- لا تنافى حصر الاستعانة فى اللَّه سبحانه لسببين:

أوّلًا: لأنّ الاستعانة المخصوصة باللَّه هى غير الاستعانة بالعوامل الأُخرى، فالاستعانة المخصوصة باللَّه هى: (ما تكون باعتقاد أنّه قادر على إعانتنا بالذات، وبدون الاعتماد على غيرها، فى حين أنّ الاستعانة بغير اللَّه سبحانه إمّا هى على نحو آخر، أى مع الاعتقاد بأنّ المستعان قادر

ص: ۵۵

على الإعانة مستنداً على القدرة الإلهية، لا بالذات، وبنحو الاستقلال، فإذا كانت الاستعانة- على النحول الأوّل- خاصّة باللّه تعالى فإنّ ذلك لا يدل على أنّ الاستعانة بصورتها الثانية مخصوصة به أيضاً.

ثانياً: إنّ استعانة- كهذه- غير منفكّة عن الاستعانة باللّه، بل هى عين الاستعانة به تعالى، وليس فى نظر الموحّد (الذى يرى أنّ الكون كلّه من فعل اللّه ومستنداً إليه) مناص من هذا.

وأخيراً نذكّر القارئ الكريم بأنّ مؤلّف المنار حيث إنّه لم يتصوّر للاستعانة بالأرواح إلّاصورة واحدة لذلك اعتبرها ملازمة للشرك فقال:

«ومن هنا تعلمون: إنّ الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أُمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر اللّه معرضون» (۱).

ويلاحظ عليه: بأنّ الاستعانة بغير اللّه (كالاستعانة

۱- المنار ۱: ۵۹.

ص: ۵۶

بالعوامل الطبيعية) على نوعين:

إحداهما عين التوحيد، والأُخرى موجبة للشرك، إحداهما مذكّرة باللّه، والأُخرى مبعدة عن اللّه.

إنّ حدّ التوحيد والشرك ليس هو كون الأسباب ظاهرية أو غير ظاهرية وإنّما هو استقلال المعين وعدم استقلاله، وبعبارة أُخرى المقياس: هو الغنى والفقر، هو الأصالة وعدم الأصالة.

إنّ الاستعانة بالعوامل غير المستقلّة المستندة إلى اللّه، التىلا تعمل ولا تؤثر إلّا بإذنه تعالى غير موجبة للغفلة عن اللّه، بل هو خير موجّه، ومذكّر باللّه. إذ معناها: انقطاع كلّ الأسباب وانتهاء كلّ العلل إليه.

ومع هذا كيف يقول صاحب المنار: «أُولئك عن ذكر اللّه معرضون» ولو كان هذا النوع من الاستعانة موجباً لنسيان اللّه والغفلة عنه للزم أن تكون الاستعانة بالأسباب المادية الطبيعية هى أيضاً موجبة للغفلة عنه.

على أنّ الأعجب من ذلك هو شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت الذى نقل- فى هذا المجال- نصّ كلمات عبده دون زيادة ونقصان، وختم المسألة بذلك، وأخذ

ص: ۵۷

بالحصر فى «إِيَّاكَ نَسْتَعِين» غافلًا عن حقيقة الآية وعن الآيات الأُخرى المتعرّضة لمسألة الاستعانة (۱).

اجابة على سؤال

إذا كانت الاستعانة بالغير على النحو الذى بيّناه جائزة فهى تستلزم نداء أولياء اللّه والاستغاثة بهم فى الشدائد والمكاره، وهى غير جائزة وذلك لأنّ نداء غير اللّه فى المصائب والحوائج تشريك الغير مع اللّه، يقول سبحانه:

«وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» (الجن/ ۱۸) ويقول تعالى: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» (الأعراف/ ۱۹۷) ويقول عزّ من قائل:

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» (فاطر/ ۱۳). إلى غير ذلك من الآيات التى تخص الدعاء للّه‌ولا تسيغ دعوة غيره.

وقد طرح هذا السؤال الشيخ الصنعانى حيث قال: وقد سمّى اللّه الدعاء عبادة بقوله: «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى» فمن هتف باسم نبىّ أو صالح بشىء

۱- راجع تفسير شلتوت: ۳۶- ۳۹.

ص: ۵۸

فقد دعا النبى والصالح، والدعاء عبادة بل مخُّها فقد عبد غير اللّه وصار مشركاً (۱).

الجواب:

إنّ النقطة الحاسمة فى الموضوع تكمن فى تفسير الدعاء وهل كل دعاء عبادة وبينهما من النسب الأربع هى التساوى حتى يصح لنا أن نقول كل دعاء عبادة، وكل عبادة دعاء، أو أنّ الدعاء أعمّ من العبادة وأنّ قسماً من الدعاء عبادة وقسماً منه ليس كذلك؟ والكتاب العزيز يوافق الثانى لا الأول، وإليك التوضيح:

لقد استعمل القرآن لفظ الدعاء فى مواضع عديدة ولا يصح وضع لفظ العبادة مكانه، يقول سبحانه حاكياً عن نوح: «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَاراً» (نوح/ ۵) وقال سبحانه حاكياً عن لسان إبليس فى خطابه للمذنبين يوم القيامة:

«وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى» (إبراهيم/ ۲۲) إلى غيرهما من الآيات التى ورد فيها لفظ الدعاء، أفيصح القول بأنّ نوحاً دعا قومه أى عبدهم، أو أنّ الشيطان دعا المذنبين أى عبدهم؟ كل ذلك يحفزنا إلى أن

۱- الصنعانى، تنزيه الاعتقاد كما فى كشف الارتياب: ۲۸۴.

ص: ۵۹

نقف فی تفسیر الدعاء وقفة تمعّن حتی نمیّز الدعاء. الذی هو عبادة عمّا لیس کذلک.

والإمعان فیما تقدم فی تفسیر العبادة یمیّز بین القسمین فلو کان الداعی والمستعین بالغیر معتقداً بألوهیة المستعان ولو ألوهیة صغیرة کان دعاؤه عبادة ولأجل ذلک کان دعاء عبدة الأصنام عبادة لاعتقادهم بألوهیتها، قال سبحانه: «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِی یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ» (هود/ ۱۰۱).

وما ورد من الآیات فی السؤال کلها من هذا القبیل فأنها وردت فی حق المشرکین القائلین بألوهیة أصنامهم وأوثانهم باعتقاد استقلالهم فی التصرف والشفاعة وتفویض الأُمور إلیهم ولو فی بعض الشؤون. ففی هذا المجال یعود کل دعاء عبادة، ویفسر الدعاء فی الآیات الماضیة والتالیة بالعبادة، قال تعالی:

«إِنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُکُمْ» (الأعراف/ ۱۹۴).

«قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا یَمْلِکُونَ کَشْفَ الضُّرِّ عَنْکُمْ وَلَا تَحْوِیلًا» (الاسراء/ ۵۶). «أُولئک الَّذِینَ یَدعُونَ یَبْتَغُونَ إِلَی رَبِّهِمُ الوَسِیلَةُ» (الاسراء/ ۵۷). «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَایَنْفَعُکَ وَلَا

ص: ۶۰

يَضُرُّكَ» (يونس/ ۱۰۶). «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَايَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ» (فاطر/ ۱۴). وما ورد فى الأثر من أنّ الدعاء مُخّ العبادة، أُريد منه دعاء اللّه أو دعاء الآلهة لا مطلق الدعاء وإن كان المدعوّ غير إله لا حقيقةً أو اعتقاداً.

وفى روايات أئمة أهل البيت إلماع إلى ذلك، يقول الإمام زين العابدين فى ضمن دعائه: «... فسميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتوعّدت على تركه دخول جهنم داخرين» (۱) وهو يشير فى كلامه هذا إلى قوله سبحانه: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (غافر/ ۶۰).

هذا هو الدعاء المساوى للعبادة وهناك قسم آخر منه لا صلة بينه وبين العبادة وهو فيما إذا دعا شخصاً بما أنه إنسان وعبد من عباد اللّه غير أنه قادر على إنجاز طلبه باقدار منه تعالى وإذن منه، فليس مثل هذه الدعوة عبادة بل سنة من السنن الإلهية فى الكون، هذا هو ذو القرنين يواجه قوماً مضطهدين يطلبون منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً فعند ذلك يخاطبهم ذو القرنين بقوله: «مَا

۱- الصحيفة السجادية، دعاؤه برقم ۴۵.

ص: ۶۱

مَكَّنِّی فِيهِ ربِّی خَيْرٌ فَأَعِينُونِی بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً» (الكهف/ ۹۵) وها هو الذی من شيعة موسی يستغيث به، يقول سبحانه: «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِی مِنْ شِيعَتِهِ عَلَی الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَی فَقَضَی عَلَيْهِ» (القصص/ ۱۵) وهذا هو النبی الأكرم صلی الله عليه و آله يدعو قومه للذبِّ عن الإسلام فی غزوة أُحد وقد تولوا عنه، قال سبحانه: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَی أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِی أُخْرَاكُمْ» (آل عمران/ ۱۵۳) فهذا النوع من الدعاء قامت عليه الحياة البشرية، فليس هو عبادة وإنّما هو توسل بالأسباب، فإن كان السبب قادراً على إنجاز المطلوب كان الدعاء أمراً عقلائياً وإلّا يكون لغواً وعبثاً.

ثمّ إنّ القائلين بأنّ دعاء الصالحين عبادة، عند مواجهتهم لهذا القسم من الآيات وما تقتضيه الحياة الاجتماعية، يتشبثون بكلّ طحلب حتی ينجيهم من الغرق ويقولون إنّ هذه الآيات تعود على الأحياء ولا صلة لها بدعاء الأموات، فكون القسم الأول جائزاً وانّه غير عبادة؛ لا يلازم جواز القسم الثانی وكونه غير عبادة.

ولكن عزب عن هؤلاء انّ الحياة والموت ليسا حدين للتوحيد والشرك ولا ملاكين لهما، بل هما حدان لكون

ص: ۶۲

الدعاء مفيداً أو لا، وبتعبير آخر ملاكان للجدوائية وعدمها.

فلو كان الصالح المدعو غير قادر لأجل موته مثلًا تكون الدعوة أمراً غير مفيد لا عبادة له، ومن الغريب أن يكون طلب شيء من الحيِّ نفس التوحيد ومن الميت نفس الشرك.

كل ذلك يوقفنا على أنّ القوم لم يدرسوا ملاكات التوحيد والشرك بل لم يدرسوا الآيات الواردة فى النهى عن دعاء غيره، فأخذوا بحرفية الآيات من دون تدبر مع أنّه سبحانه يقول: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيتذكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَاب» (ص/ ۲۹).

ثمّ انّ الكلام فى أنّ دعاء الصالحين بعد انتقالهم إلى رحمة اللّه مفيد أو لا، يتطلب مجالًا آخراً وسوف نستوفى الكلام عنه فى رسالة خاصة حول وجود الصلة بيننا وبين أولياء اللّه فى ضوء الكتاب والسنة.

جعفر السبحانى

تحريراً فى ۲۷ صفر المظفر ۱۴۱۶ ه

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹